أدب الفقهاء

- ١٠ -

الهجاء :

الفقهاء وإن تحصنوا بالعلم وتأدبوا بالدين ، فانما هم بشر من الناس تساورهم نزوات الشر وتستفزّهم أهواء النفس فيغضبون ويثورون ، وتنشأ بينهم الحزازات ، فيتراشقون بسهام النقد والتجريح ومن كان منهم يقول الشعر لم يملك أن لا يتنفس ببضعة أبيات في هجاء خصمه ، منشداً بلسان حاله قول الشاعر الحماسي : وعلى مَ أركبُه إذا لم أنزل ؟ . .

وقولنا ببضعة أبيات يعني القلة ، فمن الملاحظ أن شعرهم في هذا الباب قليل . ومع قلته فانه لا يملك سبيل الفحش ولا يتورط في السباب ، وفي الغالب يلجأ إلى التعريض والكناية ، فلا يجاهر بالعيب ولا يصرح باسم المهجوّ . ومن ثَم كانت أشعارهم في الهجاء إنما هي أبيات ومقطعات لا قصائد مطولات على المعهود في شعر الشعراء الذين تعاطوا هذا اللون من الانتاج الشعري .

والواقع أن الهجاء بهذا الشكل يُكوِّن فنّاً من القول عرفته سائر الآداب العالمية من قديمة وحديثة ، بخلاف الهجاء الذي يُغرق في الطعن ويبالغ في التقول ، ويتخذ من الفحش وسيلة لتحطيم الشخص المهجو فانه أبعد ما يكون عن الأدب والفن ، وتصنيفه مع الأغراض الشعرية إنما هو على سبيل التجاوز والاعتداد بالشكل أكثر من المضمون . ولهذا كثيراً ما ندّد به النقـــاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واستبعده مؤرخو الأدب من حظيرة الشعر العربي ، وصار اليوم في عداد الأغراض الشعرية المنقرضة أو التي أشرفت على الانقراض ، فقلما نجد في ديوان مُحدَث في غرض الهجاء شيئاً يذكر ، إلا أنْ يكون نظماً قليلاً على نحو ما ألمعنا إليه وعلى سبيل الكناية والتعريض ، بحيث إنما يتعلق النظر منه بالتعبير الأدبي الذي يكون هو مناط الإعجاب ، وأما التشنيع بشخصية المهجو فإنه آخر ما يخطر بذهن القارئ أو السامع . ومن هنا تظهر حصافة أصحابنا الفقهاء وسبقهم الأدبي إن صح التعبير إلى تمحيص حقيقة الفن وعدم خلطهم بين الأغراض الشعرية الحقيقية وما حُمِل عليها تهريجاً وتضليلاً ، وذلك ما يجعل أدبهم مثالاً يُحتذى ومِنْوالاً يُنسج عليه لو كان هنالك إنصاف ، لا مَحلّ زراية وتنكيت كما يجري على الألسنة . فمما رويه من ذلك قول الإمام الشافعي فيمن دعا عليه بالموت :

تمنَّى أُناسٌ أن أموت وأن أمُتْ ... فتلك سبيل لستُ فيها بأوحد
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم ... لئن متُّ ما الداعي علي بمُخْلَد
وقد يسبق الداعي إلى ما به دعا ... فلا يأمنَنْ ألاَّ يكون هو الرَّدي

ويقال ان صاحبه المَعْنيَّ في هذه الأبيات هو أشهب الفقيه المالكي المعروف ، فانظر كيف لم يسمه ولم يقل فيه شيئاً يُكره إلا ما هو من قبيل المُسلَّمات ، ولا غرو فقد كان شريكه في الأخذ عن الإمام مالك ، وكان أحد الأعلام ، فان يكن ما نُسِب إليه حقاً فهو مما يكون بين أهل الفضل والكمال من المنافسة التي يقتضيها الاحتكاك ، والمعاصرةُ حجابٌ كما يقولون ، ومع ذلك فما زاد الشافعي رحمه الله على القول بأن الموت سبيل الجميع وانه إن يمت فان الداعي عليه لن يَخلُد ولربما سبقه إلى الموت ، فان الأجل من المغيَّبات يجهلها الناس وهو لا يزيد ولا ينقص بالدعاء والتمني ، وهذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كلها حقائق معلومة لكل واحد من الناس ، لا تنال شيئاً من سمعة أشهب ، ولا تقدح في شخصيته بوجه من الوجوه ، فان سمينا الأبيات التي تضمنتْها هجاءً فإنما ذلك لأنها خرجت مخرج الانتصار للنفس والرد على الخصم كما يكون الهجاء غالباً .

ومن قول أبي العباس بن سُرَيْج الفقيه الشافعي المشهور :

ولو كلَّما كلبٌ عوَى ملتُ نحوَه أُجاوبُه ، إن الكلاب كثير
ولكنْ مبالاتي بمن صاح أو عوى قليلٌ لأني بالكلاب بصير

وهذان البيتان ان كانا في غير المستوى الخلقي الرفيع لأبيات الشافعي ، فهما لا ينزلان إلى ميْدان المُهاترة ومجابهة الخصوم ، وإنما يكتفيان بنوع من التعريض ، فيه احتقارٌ وفيه تعالٍ ، ولكنه لا تَشْهير فيه .

ولِمُنذِر بن سعيد الفقيه الأندلسي الكبير يذم المتعصبين من الفقهاء :

عَذيريَ من قوم يقولون كلما طلبتُ دليلاً هكذا قال مالك
فإن عدتُ قالوا هكذا قال أشْهبُ وقد كان لا تخفَى عليه المدارك
فإن زدتُ قالوا قال سحنونُ مثله ومن لم يقل ما قاله فهو آفِك
فان قلت قال اللهُ ضجُّوا وأكثروا وقالوا جميعاً أنتَ قِرنٌ مُماحِك
وإن قلتُ قد قال الرسول فقولُهم أتت مالكاً في ترك ذاك المسالك

وهي أبيات فريدة في نقد التعصب المذهبي بطريقة الحِوار من غير أن يَحيف القائلُ فيها على مُناظِره ، وإنما يحكي قوله مجرداً عن كل تعليق ، ولربما كان فيه تهجم عليه ولكنه لا يقابله بمثله ، وذلك أدعى للانصاف وتقرير الحق وترك القارئ والسامع يعترفان به لِمَن هُو له ، فأيُّ كلام مهذَّب يعلو على هذا الكلام ، وهو بعدُ في سياق الذم لحُطَّة هؤلاء القوم أيْ في هجوهم بصريح العبارة ؟ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقارن بين هـــذه الأبيات وأبيات الشاعر أبي بكر بن الأبيض في الموضوع وهي قوله :

أهلَ الرياء لبستُم ناموسكم كالذيب يختيل في الظلام العاتِم
فملكتمُ الدنيـا بمذهب مالك وقسمتمُ الأموال بابن القاسم (١)
وركبتمُ شُهْبَ البغال بأشْهَبٍ (١) وبأصبَغٍ (١) صبغت لكم في العالم

تجد بينهما بونا بعيداً في الترفع عن العبارات النابية والاتهامات الرخيصة التي اشتملت عليها هذه وسلمت منها تلك ، مع أن المَعْنيِّين بالأمر هم بالذات نفسُ الفقهاء المالكية الذين كانوا بالأندلس ، والشاعران كلاهما من نفس الاقليم ولكن كلٌّ ينفق مما عنده ، فذلك أدب الفقهاء وهذا أدب الشعراء ، وكلٌّ يعملُ على شاكلته .

والنحاة كالفقهاء لهم مذهب سلَفي ورواية يُرجّحُونها على الرأي ، ولنستمع إلى ما قاله اليزيدي ، أحد أيمتهم من المدرسة البصرية المحافِظة ، في هجو الكسائي وأشياعه من نحاة الكوفة ، الضالين مع الرأي والاجتهاد :

كنا نقيسُ النحو فيما مضى على لسانِ العَرب الأُوَل
فجـــاء أقوام يقيسونه على لُغَى أشياخ قُطْرَبُّل
فكلهم يعمل في نقض ما به يُصابُ الحق لا يأتلي
إن الكسائيَّ وأصحابه يَرقَوْنَ في النحو إلى أسفل

وما أحسن تعبير الرقي إلى أسفل ، فانه من التخييلات الأدبية البارعة ، وكذلك القياس على لغة أهل قطربل وهي قرية شماليَّ بغداد اشتهرت بخمرها ، وكانت مثابة لأصحاب اللهو والبطالة ، فإنَّ فيه سخرية لاذعة من القوم ، ومع أن مضمون الأبيات هو الدفاع عن قضية علمية مُحقّـة ، فان غرض

(١) ابن القاسم وأشهب وأصبغ من أعلام فقهاء المذهب المالكي .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الهجاء فيها لا يتسّم بفحش ولا يسفل إلى سباب ، وبالرغم من ذلك فان اليزيدي قصيدة في رثاء الكسائي لما مات هو ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي حنيفة في يوم واحد ، وذلك مما يدل على سلامة صدره ، وأنه لما قال فيه ما قال انما غضب للعلم وانتصر للعربية فرحمة الله عليهم جميعاً .

والأطباء لهم كذلك في هذا المجال ذكر ، فمن قول أحدهم وهو جرجيس الأنطاكي يهجو أبا الخير اليهودي المتطبب :

إن أبا الخير على جهله يخِفُّ في كفّته الفاضل
عليلُه المسكينُ من شؤمه في بحر هُلْك ما له ساحل
ثلاثة تدخل في دفعة طلعتُه والنعشُ والغاسل

قال ابن القفطي : وهو من أحسن ما سمعته في هجو طبيب مشؤوم .

ولسديد الدين بن رقيقة في طبيب قبيح الوجه :

قالوا خليق بالطبيب بأن يرى بالطبع يعدم رونقاً وجمالا
صدقوا ولكن لا إلى حدٍّ به يُوذي المريضَ ويُفزِع الأطفالا

وله أيضاً في طبيب غير موفق العلاج :

أيا فاعلاً خلِّ التطبب واتئد فكم تقتل المرضى المساكين بالجهل
فتركيب أجسام الأنام مؤجل فلِمْ - لا كلاك الله - تعجل بالحل؟
كأنك يا هذا خُلقتَ موكلا على رجع أرواح الأنام إلى الأصل
بهرت الوبا إذ كان قتلك دائماً وذلك في الأحيان يحدث في فصل
كفى الوَصِبَ المسكينَ شخصُك قاتلا إذا عدته قبل التعرض للفعل

وللبديع الاسطرلابي يهجو فاصداً :

وفاصدٍ مبضعه مُشْرَع كأنه جاء إلى ضرب
فصدُه بلا نفع فما حاصل غيرُ دم يخرج من ثقب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لو مرَّ في الشارع من خارج لمات مَنْ في داخل الدرب
خذه إذا جاشت عليك العدا فوخده يغنيك عن حرب

ان هذه القطع كلها مليئة بالنكت غنية بالنوادر تشف عن روح خفيفة وطبع مرح . وهي بالصور الكاريكاتورية أشبه منها بشعر الهجاء في مفهومه المعهود الذي يشنع بأخلاق المهجو ، ويقع في عرضه ويجعله مضغة في الأفواه ، ولا غرو فان أصحابها من أهل العلم ، وأدبهم هو الأدب الذي يتحكم فيه العقل والذوق السليم .

ومن لطائف الهجاء قول أبي سعيد العقيلي في أبي بكر الصُّولي الكاتب ، وكان له خزانة كتب قيمة :

انما الصوليُّ شيخ أعلمُ الناس خزانه
إن سألناه بعلم طلباً منه إبانه
قال يا غلمان هاتوا رَزْمةَ العلم الفلانه

ومن ذلك ما وقع بين الحافظ ابن حجر العَسقلاني وبدر الدين العَيْني وكانت علاقتها على غير ما يُرام . فاتفق أن منارة المدرسة المؤيدية بمصر مالت على برج باب زويلة ، فأكثر الشعراء من القول في ذلك وقال ابن حجر هذين البيتين معرّضاً بالعيني .

لجامع مولانا المؤيد رونقٌ منارتُه بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت على البُرج أمهلوا فليس على جسمي أضرّ من العيْني

وبلغ ذلك العيني فقال وأجاد :

منارة كعروس الحسن إذ جُليتْ وهدمُها بقضاء الله والقدر
قالوا أُصيبتْ بعيْنٍ قلت ذا غلط ماأوجب الهدم إلاّ خسّةُ الحجر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا يخفى ما في قولها من جمال التورية وحسن التعريض ، مع أن غرض الشعر في الظاهر هو وصف المنارة ومدح بانيها ، وبهذا الاقتدار على الجمع بين غرضين متنافيين وحسن التصرف في ذلك اشتهر هـذا الشعر وتناقله الرواة وهو حري بذلك . وقد قال في الموضوع شعراء غير فقهاء أقوالاً لم تشتهر ولم يحفل بها أهل الأدب ، وهذا مما يشهد لأدب الفقهاء بالرجحان ، وينفي عنه وصمة التخلف في أي ميدان .

ومثالٌ من نقائض العلماء وتهاجيهم بمثالب الجنس والقبيل كما كان يقع بين الشعراء قديماً ، نختم به هذا الفصل ، وهو يتشخص في قول الفقيه عبد الملك التَّجْمُوعتي يهجو البربر :

همُ البرابرُ لا ترجو نوالَهمُ ... وسلْ من الله تعجيل النوى لَهمُ
لا بلَّغ الله قلبـــاً منهم أملاً ... وبلغ الله قلبي ما نوى لَهمُ

وقوله أيضاً :

فلو كنتُ في الفردوس جاراً لبَرْبَرٍ ... لحوَّلتُ رحلي من نعيم إلى سقَرْ
يقولون للرحمن بَابَا (١) بجهلهم ... ومن قال للرحمن بَابَا فقد كَفَرْ

وفي قول العلامة أبي علي اليوسي مُجيباً له :

كفى بك جهلاً أن تحنَّ إلى سقر ... بديلاً من الفردوس في شر مستقر
وتجهل معنى مُستبيناً مجازُه ... لدَى كل ذي فهم سليم وذي نظر
فإنَّ أبا الإنسان يدعوه أنَّه ... كفيل وقيُّوم رحيم به وبَرّ

(١) يعني بذلك ما يجري على ألسنة عامتهم من قولهم في مقام التعجب وما إليـــه : أَبَابَا رَبِّي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن قال للرحمن بابا فقد عنَى به ذلك المعنى المجازَ وما كفر
وقد قال عيسى انني ذاهب إلى أبي وأبيكم جاء ذلك في الأثر

وقد اخترت هذا المثال من شعر المغاربة ترويجاً لأدبهم وتوقيفاً على ما لهم من الرسوخ في المعرفة باللغة العربية حتى ولو كانوا ممن ينتسبون إلى البربر كصاحبنا اليوسي ، فهو بجزالته وتعمقه في علم البيان لا يقل عن التجموعتي في صنعته وبديعه . وبيت القصيد انهما معاً فقيهان أديبان وأدبهما مما لا مطعن فيه ولا مأخذ .

عبد الله كنون

شكر وتصحيح

أشكر لجنة المجلة على عنايتها بتصحيح ما يقع في هذا البحث المتسلسل من خطأ وسهو ، مثل أو قارعاً سنَّ نادم في مقال الشعر الفلسفي وكان في الأصل أو قارع وهو سهو . ومثل (ويبقى ذخره لك إن ذهبتا) ، و (تصيب به المقاتل ان ضربتا) في مقال الأخلاق والآداب وجاء في الأصل إذا بدل إنْ فيهما معاً ، والواقع ان ذلك كان خطأ من الضارب على الآلة الكاتبة ولم أنتبه له عند المراجعة . وأما قول البُستي في هذا المقال أيضاً : (وتطلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الربح فيما هو خسران) فان أكثر الكتب التي أوردت القصيدة على ذلك . وقد رويته على ما فيه من زحاف جائز ، على تخفيف واو هو واما على تشديدها وهي لغة ، فلا شيء فيه ، وصححته اللجنة على سبيل الاستظهار هكذا : وتطلب الربح فيما فيه خسران . ثم وقفت على هذا الشطر في كتاب الكشكول هكذا : وتطلب الربح مما فيه خسران وهو أصوب لسلامته من العلة ومن ركاكة تكرار في .

بقي أن أشير إلى تصحيح كلمة التتايع في هـــذا المقال الأخير (مجلد ٤١ ج ٤ ص ٥٩٢) فقد صحفت إلى التتابع بالباء الموحدة بعد الألف وهي بالياء المثناة ، يقال تتايع في الشر إذا تهافت وأسرع إليه ، وأنا قلت : التحذير من التتايع في الذنوب جئت بالكلمة المعبّرة ، ولمّا صحفت إلى التتابع بالموحدة ضعف التعبير . وشكراً مرة أخرى .

كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net